مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ر ت م د: 7163 -1112 ر ت م د إ :2588-1892
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2

بيان الإمام القرطبي المالكي لمكانة الصحابة ﷺ وعدالتهم والدفاع عنهم

The Statement of the Imam Al Qurtubi Defending the Companions and their Justice

يَحْيَـى غُشِّـي
الأستاذ المحاضر بقسم العلوم الإسلامية في جامعة غرداية
abooways@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2019-10-01 تاريخ القبول: 2019-12-10

ملخص -

يعالج موضوع هذا البحث جانباً مهماً من بيان مكانة الصحابة ﷺ, وعدالتهم والدفاع عنهم عند الإمام القرطبي المالكي, وقد جاء بيانه ذلك على صورٍ عديدة؛ فبيّن الإمام القرطبي المالكي مكانة الصحابة ﷺ من خلال سوقه للنصوص الشرعية التي تدل على ذلك مع كلامه عنها, كما أظهر رحمه الله تعالى وجوب القول بعدالتهم ﷺ, مقرراً ذلك بالنصوص الشرعية وثنائه عليهم ﷺ؛ مما استدعى ذلك منه بأن قام الإمام القرطبي المالكي بالدفاع عن الصحابة ﷺ, فظهرت من خلال هذا البحث جهوداً عظيمة من الإمام القرطبي المالكي في الذَّب عن الصحابة ﷺ والدفاع عنهم وبيان مكانتهم, فكان له رحمه الله موقف رائع ومميز تجاه صحابة رسول الله ﷺ وافق فيه أهل السنة في هذا الموضوع , فكان ذلك حسنة من حسناته إلى يوم القيامة.

وكانت أهم نتائج هذا البحث في الأمور التالية:

- أن الإمام القرطبي المالكي أولى جانب الصحابة ﷺ عناية كبيرة في مؤلفاته, يشيد بهم ويرفع من قدرهم, ويدافع عنهم.

- كما كانت له جهود واضحة في بيان مكانة الصحابة ﷺ العالية.

- تقريره لوجوب عدالة الصحابة ﷺ من خلال النصوص الشرعية,

المؤلف المرسل : يَحْيَـى غُشِّـي abooways@hotmail.com

وأقواله الدالة على ذلك.

- ظهور حبه العظيم للصحابة ﷺ من خلال دفاعه عنهم وثناؤه عليهم ﷺ.

الكلمات المفتاحية -

القرطبي, بيان, مكانة, الصحابة, الدفاع.

Resume –

The Companions And Their Justice And Defending Them At Al_Imam Al Kortobi Al-Maliki, His Statements Came On Many Ways. Al_Imam Al Kortobi Al-Maliki Showed The Status Of The Companions Through The Islamic Texts That Indicate This Status With His Talks About It. Also He Showed The Obligation On Their Justice, As Provided By The Islamic Texts And Blessing Them.This Led To Defend On The Companions By Al-Imam Al Kortobi Al-Maliki. Through This Research There Are A Great Efforts Of Al Imam Al Kortobi In Defending On The Companions And Showing Their Status. He Had A Wonderful Position Towards The Companions Of The Messenger Of Allah. He Was With Ahl Al Sunna In This Subject, That Was A Good Thing For Him Till The Ddoomsday.

The Most Important Results Of This Research In The Following Matters:

- Al Imam Al Kortobi Gave A Great Cere To The Companions In His Writings, Praise Them And Raise Their Status.
- Also He Has A Clear Efforts In Showing The High Status Of The Companions.
- His State Of The Justice Of The Companions Throughout The Islamic Texts That Indicate This.
- His Great Love Of The Companions Appears Through His Defense Praise Them.

Key Words-

Al Kortobi,Showing,Status,The Companions,Defense

المقدمة

إنّ الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا, وسيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضلَّ له, ومن يضلل فلا هادي له, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. **أما بعد:**

فإن من أعلى الكمال شرفُ صحبة النبي ﷺ, فالصحابة رضي الله عنهم من أعظم الناس عند الله ﷻ, وعند رسوله ﷺ مرتبةً, وأشرفهم حظوة ومنزلة, أَكْثَر اللهُ ﷻ, ورسوله ﷺ في وصفهم والثناء عليهم ومدحهم, فتعددت الآيات وتواترت الأحاديث بذكرهم الجميل, ونشرهم الطيب, ورفعتهم السامية في الدنيا والآخرة, وما خُصُّوا به من الصفات الكريمة, والشيم العالية, والمواهب الجليلة والرفيعة, والتي تدل على سمو منزلتهم ﷺ, وعلو مكانتهم, ورفعة شأنهم, وعدالتهم, وتبين -أيضاً - ما للصحابة من منزلة وفضل ومكانة, وكيف لا تكون لهم تلك المنزلة والمكانة؟, وهم من اختارهم الله العليم الحكيم؛ لصحبة سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ, ونصرة دينه, فهم الصفوة المؤمنة التي حملت الرسالة, وبهم أظهر الله الإسلام, وأعلى كلمة الحق, فجزاهم الله خيراً لما قدَّموه لأمة الإسلام بعدهم, اللهم آمين.

وقد بذل علماء السنة رحمهم الله تعالى جهوداً عظيمة في الذَّب عن الصحابة ﷺ والدفاع عنهم وبيان مكانتهم, وتقرير أن من أسباب الهلاك: التعدي والقدح في أصحاب رسول الله ﷺ.

ولذلك كان من الواجب بيان الحق الذي قرره أهل السنة, والإشادة بعظيم جهادهم وجهودهم, في التصدي لهذه المكيدة التي تُكاد للإسلام وأهله؛ إذْ الطعن في الصحابة ﷺ طعنٌ في دين الإسلام.

وقد كان للإمام القرطبي المالكي جهداً مباركاً في ذلك, وخطا في هذا المضمار خطوات جليلة نافعة, فأحببتُ في هذا البحث أن أجمع ما تيسر لي من الأقوال والنقولات عنه رحمه الله تعالى في بيان مكانة الصحابة ﷺ, والدفاع عنهم.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تتجلى أهمية موضوع هذا البحث وأسباب اختياره من خلال النقاط الآتية:

1 - أن فيه بياناً لمكانة الصحابة ﷺ, والدفاع عنهم.

2 - أن هذا الموضوع له صلة بأصول الاعتقاد, وهو -أيضاً - أصلٌ في التفريق بين أهل السنة وغيرهم من أهل الأهواء والبدع.

3 - وجود عدد كبير من أهل الأهواء والبدع, المثيرين للشبه الباطلة والافتراءات الزائفة, حول الصحابة ﷺ, مستخدمين في ذلك عبارات برّاقة وأساليب ملتوية.

4 - شهرة الإمام القرطبي, وعلو قدره عند العلماء, ويتبين ذلك عند الوقوف على ترجمته.

5 - أن دفاع القرطبي عن الصحابة ﷺ مبثوث في كثير من كتبه على تنوعها واختلافها, فجمعُ ذلك في مكان واحد, أدعى للإفادة منه.

6 - الرغبةُ في الإفادة من الإمام القرطبي المالكي, ومن منهجه في هذا الموضوع المهم, مما يساعد على تكوين شخصية الباحث, وتنمية ملكاته العلمية.

مشكلة البحث:

مضمون مشكلة هذا البحث في السؤال الآتي: هل الأمام القرطبي المالكي كان له دورٌ في بيان مكانة الصحابة ﷺ والدفاع عنهم من خلال كتبه؟ وتتضح هذه المشكلة أكثر بطرح بعض التساؤلات الفرعية على النحو الآتي:

1 - ما هي أبرز جهود القرطبي التي تبين مكانة الصحابة ﷺ وتدافع عنهم من خلال كتبه؟

2 - ما هي أساليبه في بيان مكانة الصحابة ﷺ وما وسائله وما أبرز سماته في ذلك؟

3 - ما أساليبه ووسائله في الدفاع عن الصحابة ﷺ, وما سمات منهجه في ذلك؟

منهج البحث:

اتبعت بتوفيق الله تعالى وعونه في هذا البحث, المنهج الاستقرائي الاستنتاجي, والذي يجمع بين طريقي الاستقراء والاستنتاج, متّبعاً في ذلك الأمور الآتية:

1 - تتبعت كلام القرطبي وآرائه عن الصحابة ﷺ عموماً من خلال ما تيسر لي من كتبه.

2 - اجتهدت على حصر وانتقاء كلام القرطبي المتعلق ببيان مكانة الصحابة ﷺ والدفاع عنهم.

3 - رتبتُ كلام القرطبي وآرائه حسب خطة هذا البحث.

أهداف البحث

تتجلي الأهداف المرجو تحقيقها من هذا البحث في النقاط التالية:

1 - إبراز عناية الإمام القرطبي المالكي ببيان مكانة الصحابة ﷺ وفضلهم.

2 - جمع أقوال الإمام القرطبي المالكي الدالة على وجوب القول بعدالة الصحابة ﷺ.

3 - إظهار بعض صور دفاع الإمام القرطبي على الصحابة ﷺ.

خطة البحث:

انتظمت خطة هذا البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة, على النحو الآتي:

المقدمة: واشتملت على الافتتاحية وأهمية البحث ومشكلته, وخطة البحث ومنهجه.

التمهيد: التعريف بالصحابة ﷺ, والتعريف بالإمام القرطبي المالكي, فاشتمل على الفرعين الآتيين:

الفرع الأول: التعريف بالصحابة ﷺ.

الفرع الثاني: التعريف بالإمام القرطبي المالكي رحمه الله تعالى.

المبحث الأول: بيان الإمام القرطبي المالكي مكانة الصحابة وعدالتهم, وثناؤه العام عليهم ﷺ.

المبحث الثاني: دفاع الإمام القرطبي عن الصحابة ﷺ.

الخاتمة: وتحوي على أهم النتائج.

فهرس المصادر والمراجع.

التمهيد: التعريف بالصحابة ﷺ، والتعريف بالإمام القرطبي المالكي:

التمهيد لهذا البحث: يكون ببيان هذين الفرعين الآتيين:

الفرع الأول: التعريف بالصحابة ﷺ:

من المناسب قبل الشروع في البحث، أن نقف على تعريف الصحابي، وما حدُّ هذا الشخص الذي أنزله أهل السنة المنزلة العظيمة، وذلك على النحو الآتي:

1 - تعريف الصحابي لغةً:

الصحابي في اللغة: واحد الصحابة، منسوباً إليهم، والصاحب: اسم فاعل ، من صحب يصحب، فهو صاحب، ويقال في الجمع: أصحاب وأصاحيب وصحب وصحاب وصحبة، وصحبان وصَحابة وصِحابة.

والصاحب: مشتقٌ من الصحبة، وهي في اللغة بمعنى الملازمة والانقياد، وكل شيء لازم شيئاً، فقد استصحبه[1].

واللغة لا تقيد الصحبة بقدرٍ مخصوص من الزمن، يقول القاضي أبو بكر الباقلاني عن ذلك:" لا خلاف بين أهل اللغة في أن القول "صحابي" مشتق من الصحبة، وأنه ليس بمشتق من قدر منها مخصوص؛ بل هو جارٍ على كل من صحب غيره، قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك يقال: صحبت فلاناً حولاً ودهراً وسنةً وشهراً ويوماً، فيوقع اسم المصاحبة بقليل ما يقع منها وكثيره، وذلك يوجب في حكم اللغة اجراء هذا على من صحب النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار، هذا هو الأصل "[2].

وقال السخاوي -أيضاً - :" وهو لغةً يقع على من صحب، أقل ما

([1]) انظر: لسان العرب لابن منظور (286/7) طبعة: دار صادر بيروت.

([2]) الكفاية في علم الرواية للخطيب ص69 -70. تحقيق: أبو عبد الله السورقي، نشر المكتبة العلمية المدينة المنورة.

يطلق عليه صحبةً فضلاً عمن طالت صحبته, وكثرت مجالسته"[1].

2 - تعريف الصحابي اصطلاحاً:

اختلف العلماء في تعريف الصحابي اصطلاحاً[2], وخلافهم مبني على ما ينبغي أن يُراعى في المعنى, هل هو المعنى اللغوي أو المعنى العرفي؟:

فذهب جمهور المحدثين أن الصحابي في الاصطلاح:" هو من لقي النبي ﷺ يقظةً, مؤمناً به, بعد بعثته, حال حياته, ومات على الإيمان, ولو تَخَلَّلتْ رِدَّةٌ في الأصح"[3].

وذهب جمهور الفقهاء والأصوليين أن الصحابي:" من لقي النبي ﷺ, يقظةً, مؤمناً به, بعد بعثته, حال حياته, وطالت صحبته, وكَثُر لقاؤُه به, على سبيل التبع له, والأخذ عنه, وإن لم يروِ عنه شيئاً, ومات على الإيمان"[4].

فالمحدثون راعوا في تعريف الصحابي اصطلاحاً: المعنى اللغوي العام؛ حيث يطلق الصاحب لغةً على الملازم والمنقاد, سواءً أطالت صحبته أم قصرت.

والأصوليون راعوا في تعريفهم للصحابي المعنى العرفي؛ حيث يُطلق الصاحب عُرفاً على من طالت صحبته وكثرت ملازمته[5].

والذي يظهر أن تعريف المحدثين للصحابي فيما يتعلق بموضوعنا - أي جانب العدالة وحرمة الطعن فيهم - هو الراجح لما يلي:

([1]) فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي(8/4).ط الأولى: 1403هـ،دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان.

([2]) انظر سياق أقوالهم وأدلتهم في:" تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة" للعلائي ص30 -50.

([3]) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (71/1) تحقيق عادل أحمد، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ط1 سنة 1415هـ.

([4]) انظر: مقدمة ابن الصلاح ص158 المحقق: نور الدين عتر, دار الفكر المعاصر - بيروت, سنة 1406هـ.

([5]) انظر: جامع الأصول لابن الأثير (34/1) تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط, الناشر: مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان, الطبعة: الأولى.

1 - لأنه يتلاءم مع المدلول اللغوي لكلمة الصحبة, والمعاني اللغوية من الأمور المستقرة, التي لا تتغير بتغيّر الأزمنة والأمكنة, بخلاف العرف الذي يتغيّر - في غالب الأحيان - بتغيّر الزمان والمكان. وعند الاختلاف يرجع إلى المعايير الثابتة دون المتغيرة[1].

2 - إن جمهور المحدثين:" حين عرّفوا الصحابي بالمعنى الاصطلاحي بناءً على مراعاة المعنى اللغوي, أخذوا المعنى اللغوي بمعناه العام الشامل لطول الصحبة وقصرها, ولم يقصروه على بعض أفراده؛ وهو طول الصحبة دون قصرها, بخلاف أهل الأصول الذين راعوا في تعريفهم للصحابي بعض المعنى اللغوي فقط, وهو طول الصحبة, فقَصَروا المعنى اللغوي على بعض أفراده, وتركوا البعض الآخر, ولاشك أن مراعاة المعنى اللغوي بجميع أفراده أولى من قصره على بعضها؛ فإنه في اللغة يشمل الملازمة, وهي تستلزم طول الصحبة المعبر عنه بالمعنى العرفي, ويشمل الانقياد الذي لا يستلزمها"[2].

3 - اختلاف أهل الأصول في تحديد مدة المصاحبة, دليلٌ على عدم استنادهم إلى أصلٍ ثابت فالبعض اشترط أن تكون سنة فأكثر, ومنهم من اشترط دون ذلك, وهذا يدل على أن قولهم فيه نظر[3].

الفرع الثاني: التعريف بالإمام القرطبي المالكي رحمه الله تعالى[4].

([1]) انظر: الصحابة ومكانتهم عند المسلمين لمحمود عيدان ص9, رسالة ماجستير, طبعة 1413ه.

([2]) انظر: صحابة رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة لعيادة الكبيسي ص72 -73 دار القلم للطباعة, دمشق, ط1 1407هـ.

([3]) انظر: مقدمة ابن الصلاح ص146.

([4]) مصادر الترجمة: تاريخ الإسلام للذهبي(123/7), وطبقات المفسرين للداودي(246/1 -247), وطبقات المفسرين للسيوطي 92, وسير أعلام النبلاء(217/3), ونفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب للمقري(25/2 -43), تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، نشر دار صادر بيروت، الطبعة الثانية سنة 1997م, والديباج المذهب في أعيان علماء المذهب لابن فرحون(210/2), تحقيق مأمون الجنان، نشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنة 1417هـ, وشجرة النور

لما كان الكلام في هذا البحث عن جهود الإمام القرطبي المالكي، كان مما لابد منه التعريف بهذا الإمام، وما كان عليه من علم وعقيدة ومكانة، وجعلتُ هذا القسم في نقاط على النحو التالي:

1 - اسمه ونسبه وكنيته، ومولده:

هو الإمام العلامة: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري، الخزرجي، القرطبي، المالكي . ويُكنى: أبو عبد الله .

الأنصاري: نسبة إلى الأنصار صحابة الرسولﷺ بالمدينة المنورة.

الخزرجي: نسبة إلى الخزرج إحدى قبيلتي الأنصار.

القرطبي: نسبة إلى المدينة الكبيرة في بلاد الأندلس: قرطبة[1].

ولد في مدينة قرطبة، والأقرب لولادته أنه بين(585 -595) في أواخر القرن السادس الهجري.

2 - عقيدته ومذهبه الفقهي:

كان الإمام القرطبي المالكي على معتقد أهل السنة والجماعة التي كان عليها سلف هذه الأمة من الصحابة ﷺ والتابعين، ومما يوضح هذا قوله:" فمن بدّل أو غيّر أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المُبْتَعَدِين منه، المسودّي الوجوه، وأشدّهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلّهم مبّدلون مبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الظلم والجور وطمس الحقّ وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع "[2].

الزكية(197/1)، والوافي بالوفيات (87/2)، وشذرات الذهب(335/5)، وهدية العارفين(129/2)، والأعلام(322/5).

([1]) قرطبة: مدينة عظيمة بوسط الأندلس، وبها كانت ملوك بني أمية، استولى عليها النصارى سنة 632ه، وحالياً بأسبانيا. يُنظ: معجم البلدان للحموي(324/4).

([2]) في تفسيره (168/4).

أما مذهبه الفقهي: فهو على مذهب إمام دار الهجرة: مالك بن أنس رحمه الله, فكان الإمام القرطبي مالكي المذهب.

3 - مكانته العلمية وثناء العلماء عليه[1]:

تبوأ الإمام القرطبي مكانة عالية, ولقد أثنى عليه أهل العلم في عصره, وممن جاء بعده.

فممن أثنى عليه الإمام الذهبي, فقال عنه:" الإمام العلامة أبو عبد الله القرطبي, إمام متفنن متبحر في العلم, له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه, ووفور فضله, وقد سارت بتفسيره العظيم الركبان"[2].

وأثنى عليه ابن فرحون المالكي بقوله:" الشيخ الإمام أبو عبد الله القرطبي المفسر, كان من عباد الله الصالحين, والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا, المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة "[3].

وقد وصفه الصفدي بقوله:" إمام متفنن, متبحر في العلم"[4].

وقال عنه ابن العماد الحنبلي:" وكان إماما علما من الغواصين على معاني الحديث, حسن التصنيف جيد النقل"[5].

ومما تقدم تتضح مكانة الإمام القرطبي عند علماء المسلمين, فلم يتخلف أحد منهم على الثناء عليه, وبيان مكانته.

4 - مؤلفاته[6]:

كتب الإمام القرطبي مؤلفات عدة, يظهر من خلالها تنوع اهتمامه, وتعدد مشاربه في كافة أنواع العلوم, وتبيّن سعة اطلاعه, أذكر منها الآتي:

([1]) ينظر: الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير لمشهور حسن ص32 وما بعدها.

([2]) تاريخ الإسلام (75/50).

([3]) الديباج المذهب(317/1).

([4]) الوافي بالوفيات(122/2).

([5]) شذرات الذهب(334/5).

([6]) انظر لذلك: تاريخ الإسلام (74/50), والديباج المذهب(317/1), وهداية العارفين(129/6), والجامع لأحكام القرآن(15/113, 116 -117), و(10/268), و(16/146).

1. الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي القرآن.
2. التذكار في فضل الأذكار.
3. قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة.
4. الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام.
5. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة .
6. أرجوزة, جمع فيها أسماء النبي ﷺ وشرحها.
7. الإعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام.
8. منهج العباد ومحبة السالكين والزهاد.
9. المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس.
10. شرح التقصي.
11. اللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية.
12. الأسنى في شرح الأسماء الحسنى. وغيرها.

5 - وفاته[1]:

بعد أن استقر الإمام القرطبي بمصر قرابة 88 عاماً, توفاه الله تعالى بمنية بني خصيب, ويقال لها اليوم " المنيا" ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة 671 من الهجرة, ويكاد يكون هذا موضع اتفاق الكتب التي ترجمت له, رحمه الله رحمة واسعة.

المبحث الأول: بيان الإمام القرطبي المالكي مكانة الصحابة وعدالتهم, وثناؤه العام عليهم ﷺ.

إن أهل السنة يعتقدون أن للصحبة شرفاً عظيماً, يُمنح صاحبها ميزةً خاصة, وقد أجمعوا على علو مكانة الصحابة ﷺ وسموّ منزلتهم، ورفعة شأنهم عند الله تعالى, فللصحابة ﷺ مكانة عظمى عند علماء المسلمين قاطبةً, ومما يدل على ذلك عنايتهم الشديدة فيما يتعلق بالصحابة ﷺ,

(1) انظر: شذرات الذهب(335/5), ونفح الطيب(211/2), وهدية العارفين(129/6).

وخاصة ببيان عدالتهم؛ لما يترتب على تعديلهم من أحكام , كما يعتقد أهل السنة أن الصحابة ﷺ عدولٌ كلهم, وأنهم أهل استقامة وصلاح في دينهم وأخلاقهم, اكتسبوا هذا التعديل بتعديل الله تعالى لهم, وثنائهم عليهم, وثناء رسوله ﷺ, وأن الحال التي كانوا عليها شاهدةٌ على ذلك, ولقد تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على تعديل الصحابة الكرام رضي الله عنهم، مما لا يبقى معها شك لمرتاب في تحقيق عدالتهم.

وقد أجمع أهل السنة على عدالتهم بتعديل الله ﷻ ورسوله ﷺ لهم، فلا يحتاجون بعد ذلك إلى تعديل أحد، فكل واحد منهم عدل، إمام، فاضل، واجبٌ على الأمة تعظيمه وتوقيره واحترامه والترضي عنه والاستغفار له[1].

كما يعتقد أهل السنة أن الصحابة ﷺ كلهم عدول, قد تحققت فيهم صفة العدالة, ظهر فيهم معناها؛ فكانوا من أكثر الناس ملازمةً للتقوى؛ لذلك أجمع أهل السنة على قبول رواية الصحابي, وشهادته دون توقف فيها, وقد نقل إجماعهم على ذلك جمعٌ كبير من العلماء[2]؛ فالصحابة ﷺ جميعاً عدول عند أهل السنة والجماعة.

وهذا المبحث خصصته لذكر ما تسير من الأقوال والعبارات عن الإمام القرطبي المالكي في بيانه مكانة الصحابة ﷺ عموماً, والتي توضح - أيضاً - عدالة الصحابة ﷺ, وثنائه العام عنهم, أسردها على النحو الآتي:

أولاً: استدلال الإمام القرطبي المالكي بالنصوص الشرعية على عدالة

---

(1) انظر: الشريعة للآجري(1634/4)، تحقيق عبد الله الدميجي، نشر دار الوطن الرياض، ط2 سنة 1420هـ.والعواصم من القواصم لابن العربي ص 252، والكفاية للخطيب ص 46.

(2) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (19/1), تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى سنة 1412هـ. وفتح المغيث للسخاوي (103/3), والإصابة لابن حجر (9/1), وغيرها.
وفتح المغيث للسخاوي (103/3), والإصابة لابن حجر (9/1), وغيرها.

الصحابة ﷺ وفضلهم:

استدل الإمام القرطبي المالكي على عدالة الصحابة ﷺ, بما ساقه في مصنفاته من أدلةٍ من نصوص الكتاب والسنة, والتي تقرر عدالتهم وفضلهم ﷺ, فمن ذلك الآتي:

1- قول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

في الآية بيان أفضلية هذه الأمة, وأن الله جعلها أمةً وسطاً, خياراً عدولاً, فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم, ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم هم على رأس هؤلاء, فوجه الاستدلال من قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾, **وسطاً بمعنى عدولاً وخياراً, وخُصّ به الصحابة؛ لأنهم المخاطبون بهذه الآية.**

قال القرطبي مبيناً ذلك:" المعنى: والوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها, أي أعدلهم وخيرهم, ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً"[2].

- وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [3].

أفادت هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد رضي عن الصحابة عموماً, وعلى أهل بيعة الرضوان خصوصاً, وأكرم بهذا من فضل وتشريف لهم, ولاشك أن الله تعالى لا يرضى إلا عن العدول والخيار من الخلق.

قال القرطبي في سياق بيانه لفضائل الصحابة, مقرراً بذلك عدالتهم رضي الله عنهم: "وهكذا القول في الصحابة، اشتركوا في الصحبة, ثم

---

(1) سورة البقرة: 143 .

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن (153/2 -154) .

(3) سورة الفتح: ١٨ .

تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل، فهم متفاضلون بتلك، مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم، وحسبك بقوله الحق - وذكر الآية - فعم وخص، ونفى عنهم الشين والنقص، رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا بحبهم آمين"[1].

- وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ 3 بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[2] .

بيّن الله تعالى حالهم وطيب مآلهم، بما وصفهم به من أشرف الصفات، فهذه الآية تضمنت ذكر منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالثناء عليه، ثم ثنى الله تعالى فيها بالثناء على سائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. فذكر تعالى أن من صفاتهم الشدة والغلظة على أهل الكفر، كما وصفهم بالتراحم والتعاطف فيما بينهم، ووصفهم بأنهم يُكْثرون من الأعمال الصالحة المقرونة بالإخلاص وسعة الرجاء، وفي مقدمة تلك الأعمال الصالحة إكثارهم من الصلاة ابتغاء الحصول على فضل من الله ورضوان، فهذا الوصف الذي وصفهم الله به في كتابه، وهذا الثناء الذي أثنى به عليهم، لا يتطرق إلى النفس معه شك في عدالتهم ؟!.

يقول القرطبي عند تفسيره لهذه الآية:" فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلائهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم، ورضي

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن (264/3).

([2]) سورة الفتح: 29.

عنهم وأرضاهم, ووعدهم الجنة, وخاصةً العشرة المقطوع لهم بالجنة, بإخبار الرسول ﷺ, هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن, والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مُسقط من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب"[1].

وقال -أيضاً - ناقلاً عن إمام المذهب مالك بن أنس ذَوْده عنهم رضي الله عنهم, ومقرراً عدالة الصحابة رضي الله عنهم:" رُوي أنه كان عند مالك بن أنس رجالاً، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ قال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله, فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته, فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين، قال الله تعالى -وذكر الآية -, و هذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم, فحذار من الوقوع في أحدٍ منهم، كما فعل من طعن في الدين, فمن نسبه أو واحداً من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن، طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومتى ألحق واحد منهم تكذيباً فقد سبّ؛ لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبّ أصحابه، فالمكذب لأصغرهم - ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألزمها كل من سبّ واحداً من أصحابه أو طعن عليه "[2].

وقال الإمام القرطبي: بعد أن سرد بعض الآيات الدالة على مناقب الصحابة رضي الله عنهم:" إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن(299/16).

([2]) انظر: الجامع لأحكام القرآن(297/16 -298).

عليهم، والشهادة لهم بالصدق والفلاح, وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم, ومآل أمرهم"[1].

- كما اشتملت السنة على أحاديث كثيرة, تنوه بفضل الصحابة ﷺ, وتنصّ على توقيرهم واحترامهم, وتشيد بمكانتهم ومنزلتهم, والثناء عليهم رضي الله عنهم, وتحذر من التعرض لهم. وهذه الأحاديث بمجموعها, لاشك أنها دليلٌ عظيم على عدالة أصحاب رسول الله ﷺ, ونزاهتم.

وما قيل حول الآيات القرآنية, يقال هنا, فمن أثنى عليه رسول الله ﷺ, وامتدحه, وأوجب على الأمة محبته واحترامه وتوقيره, فإنه لا ريب أن يكون ذلك المديح والثناء تعديلاً له, فقد وصفهم النبي ﷺ في أحاديث يطول تعدادها, وأطنب في تعظيمهم, وأحسن الثناء عليهم بتعديلهم.

وقد استدل الإمام القرطبي -أيضاً- على عدالة الصحابة ﷺ والتحذير من الطعن فيها بأحاديث صريحة واضحة، أذكر منها الآتي:

1 - عن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم, قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة))[2].

فهذا الحديث فيه تزكية لجميع الصحابة ﷺ وإثبات العدالة لكل منهم, والكف عن الطعن فيهم، والثناء عليهم بالخيرية المطلقة, والأفضلية لهم على سائر أمته.

فأثبت الحديث الخيرية للصحابة ﷺ؛ حيث أنهم يمثلون قرن النبي ﷺ.

قال القرطبي عند شرحه للحديث:" وهذا الحديث يدل على أن أول هذه الأمة, أفضل ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء، وإن من

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن (297/16).

([2]) أخرجه البخاري في صحيحه: ك/ المناقب، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (2/5) ح3650, ومسلم في صحيحه: ك/ فضائل الصحابة, باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (1963/4) ح2533.

صحب النبي صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرة في عمره، أفضل ممن يأتي بعده، وإن فضيلة الصحبة، لا يعدلها عمل"[1].

2 - وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحداً أنفق مثل أُحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"[2].

في هذا الحديث نهي صريح عن سبّ أصحاب رسول الله ﷺ، وفي هذا الفضل والثناء لهم والتكريم والتبجيل، تنويهٌ لمكانتهم، وتشريفٌ لمنزلتهم.

قال القرطبي عند هذا الحديث، مقرراً عدالة الصحابة ﷺ، ومحذراً من الطعن فيهم:" معناه لم يدرك مد أحدهم، إذا تصدق به ولا نصف المد، فالنصيف هو النصف هنا، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة، فحذار من الوقوع في أحد منهم، فمن نسب أحداً من الصحابة إلى كذب، فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله ﷺ. ومتى ألحق واحد منهم تكذيباً فقد سب؛ لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب، وقد لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه، فالمكذب لأصغرهم - ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ، وألزمها كل من سبَّ واحداً من أصحابه أو طعن عليه"[3].

ثانياً: كما ورد عن الإمام القرطبي نقولاً في تقريرهم عدالة الصحابة ﷺ والنهي عن الطعن فيهم، ومن تلك الأقوال ما يلي:

قال رحمه الله مقرراً عدالة الصحابة رضي الله عنهم: "وهكذا القول في الصحابة، اشتركوا في الصحبة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل، فهم متفاضلون بتلك مع أن الكل شملتهم

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن (171/4).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: ك/ فضائل أصحاب النبي **صلى الله عليه وسلم**، باب قول النبي **صلى الله عليه وسلم**:" لو كنت متخذاً خليلاً" (8/5) ح 3673، ومسلم في صحيحه: ك/ فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (1967/4) ح 2540.

(3) انظر: الجامع لأحكام القرآن (297/16 -298).

الصحبة, والعدالة والثناء عليهم، وحسبك بقوله الحق -وذكر جملةً من الآيات القرآنية في الثناء عليهم - فعم وخص، ونفى عنهم الشين والنقص، رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبهم آمين"[1].

وقال القرطبي مدافعاً عنهم:" لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة ، وهم ﷺخطأ مقطوع به؛ إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا الله بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا عن سبهم، وأن الله غفر ﷺبأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي لهم، وأخبر بالرضا عنهم, وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم، وإبطال فضائلهم وجهادهم، وعظيم غنائهم في الدين رضي الله عنهم. وقد سُئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2]. وسُئل بعضهم عنها أيضاً فقال: تلك دماء طهر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه"[3].

ويشير القرطبي -أيضاً - إلى ما كان عليه سلف الأمة من الحث على نشر فضائل الصحابة رضي الله عنهم وبث مناقبهم، وذكر مآثرهم، والكف عما سواه، فينقل عن العوّام بن حوشب قوله: ((أدركت صدر هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم، فتُحرِّشروا الناسَ عليهم))[4].

المبحث الثاني: دفاع الإمام القرطبي عن الصحابة ﷺ.

إن المطلع على بعض مؤلفات الإمام القرطبي المالكي يتضح له كماً

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن (264/3).

([2]) سورة البقرة: 134.

([3]) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (321/16).

([4]) المصدر السابق (375/20).

هائلاً من الأقوال والعبارات, والتي تعد جهوداً من هذا الإمام في دفاعه عن الصحابة ﷺ, أسوق منها ما تيسر لي على النحو الآتي:

أولاً: دفاعه عن الصحابة ﷺ عموماً مستدلاً بالنصوص الشرعية:

- **قال تعالى:** ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [1].

قال أبو عبد الله القرطبي عند تفسيره للآية:" وقد قيل: أن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم روى عن أبيه: أن نفراً من أهل العراق جاؤوا إليه، فسبُّوا أبا بكر وعمر ثم عثمان رضي الله عنهم فأكثروا ؛ فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا لا . فقال: أفمن الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ؟ فقالوا لا . فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله -وذكر الآية - قوموا، فعل الله بكم وفعل.

وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ﷺ ؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء, ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبّهم, أو واحداً منهم, أو اعتقد فيه شراً, إنه لا حق له في الفيء ؛ رُوي ذلك عن مالك وغيره"[2].

- **وقوله تعالى:** ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[3] .

([1]) سورة الحشر: ١٠.

([2]) انظر: الجامع لأحكام القرآن(31/18 -33).

([3]) سورة الفتح: 29.

ووجه دلالة الآية على تحريم سبِّ الصحابة رضي الله عنهم, أنه لا يسبهم شخص إلا لما وُجد في قلبه من الغيظ عليهم، وقد بين تعالى في هذه الآية إنما يغاظ بهم الكفار، فدلت على تحريم سبهم، والتعرض لهم بما وقع بينهم على وجه العيب لهم.

قال القرطبي:" روى أبو عروة الزبيري: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ مالك هذه الآية، ثم قال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقد أصابته هذه الآية, ثم قال - أي القرطبي -: " لقد أحسن مالك في مقالته, وأصاب في تأويله فمن نقص واحداً منهم, أو طعن عليه في روايته, فقد ردّ على الله رب العالمين, وأبطل شرائع المسلمين، ثم ذكر طائفة من الآيات التي تضمنت الثناء عليهم والشهادة لهم بالصدق والفلاح، ثم قال عقبها: "وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم, فحذار من الوقوع في أحدٍ منهم، كما فعل من طعن في الدين, فمن نسبه أو واحداً من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن، طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومتى ألحق واحد منهم تكذيباً فقد سب؛ لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبّ أصحابه، فالمكذب لأصغرهم– ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألزمها كل من سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه" [1].

3 - ما رواه الشيخان في صحيحيهما, من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: ((لا تسبّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده, لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً, ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه))[2].

([1]) الجامع لأحكام القرآن (296/16 -298).

([2]) تقدم تخريجه فيما مضى.

وفي هذا الحديث أبلغ النهي عن سبِّ الصحابة ﷺ, والذي اتخذته الرافضة ديناً, ينسبونه لآل البيت ظلماً وزوراً.

ففيه نهيُ النبي ﷺ من كانت له صحبة متأخرة, أن يسبَّ من كانت له صحبة متقدمة " لامتيازهم عنهم من الصحبة, بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم, مثل أحد ذهباً, ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه, فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة, فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة ؟ رضي الله عنهم أجمعين"[1].

فهذا الحديث اشتمل على النهي والتحذير من سب الصحابة رضي الله عنهم، وفيه التصريح بتحريم سبِّهم, كما دلَّ -أيضاً - على تزكية الرسول ﷺ للصحابة ﷺ, إذْ أنه عليه السلام بيّن فضلهم على غيرهم ممن أتى بعدهم, وذكر أن مُدّ طعام يقدمه أحدهم, أعظم عند الله وأكثر ثواباً من مثل جبل أحد يقدمه غيرهم, وقد استشهد بهذا الحديث جمٌّ غفير من العلماء على تحريم سب الصحابة ﷺ والوقيعة فيهم.

قال القرطبي عند هذا الحديث, محذراً من الطعن في الصحابة ﷺ وسبِّهم:" معناه لم يدرك مُدَّ أحدهم, إذا تصدق به ولا نصف المد، فالنصيف هو النصف هنا, والأحاديث بهذا المعنى كثيرة، فحذار من الوقوع في أحد منهم, فمن نسب أحداً من الصحابة إلى كذب, فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم, ومتى ألحق واحد منهم تكذيباً فقد سبّ؛ لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب، وقد لعن رسول الله ﷺ من سبَّ أصحابه، فالمكذب لأصغرهم - ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ، وألزمها كل من سبَّ واحداً من أصحابه أو طعن عليه"[2].

وقال -أيضاً -:" لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ

---

(1) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص692.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن (16/297 -298).

مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله ﷻ، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبِّهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم"[1].

4 - كما قال الإمام القرطبي في معرض ردّه على الروافض في استدلالهم على تقديم علي على أبي بكر ﷺ في الإمامة بحديث:« أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»: "فاستدل بهذا الروافض والأمامية وسائر فرق الشيعة، على أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف علياً رضي الله عنه على جميع الأمة؛ حتى كفّر الصحابةَ الأماميةُ - قبحهم الله -؛ لأنهم عندهم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف علي واستخلفوا غيره باجتهادٍ منهم، ومنهم من كفّر علياً إذ لم يقم بطلب حقه، وهؤلاء لا شك في كفرهم، وكفر من تبعهم على مقالتهم))[2].

فالطعن في الصحابة ﷺ طعنٌ في الإسلام ومصدر الشريعة؛ لأنهم نقلتها, قال القرطبي عن ذلك:" فمن نقص واحداً منهم, أو طعن عليه في روايته, فقد ردَّ على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين"[3].

ثانيا: كما دافع الإمام القرطبي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم بأعيانهم؛ لإثبات عدالتهم:

وقد سلك الإمام القرطبي منهج الدفاع عن الصحابة رضي الله عنهم عموماً, ونافح عن بعضهم على وجه التحديد , خصوصاً من كان عرضةً منهم لأهل البدع والأهواء, ومن هؤلاء الذين دافع عنهم بأعيانهم:

- حاطب بن أبي بلتعة ﷺ:

([1]) انظر: الجامع لأحكام القرآن(321/16).

([2]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (323/9).

([3]) انظر: الجامع لأحكام القرآن (297/16).

حاول البعض الطعن فيه ﷺ وفي عدالته بسبب قصته المشهورة في مكاتبته للمشركين بأمر مسير النبي ﷺ إلى مكة [1], وقد بيّن القرطبي منزلة حاطب ﷺ, ودافع عنه فيما قيل في حقه ﷺ وأظهر عذره في فعله ذلك.

قال القرطبي:" قوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[2] يعني بالظاهر؛ لأن قلب حاطب كان سليماً؛ بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم:" أما صاحبكم فقد صدق", وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده", إلى أن قال:" وهذا كله معاتبة لحاطب, وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه. كما قال:

أعاتب ذا المودة من صديق إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقي العتاب" [3].

وبه ختام هذا البحث, والله أعلم وأحكم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وتوفيقه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختم الله به النبوات، وعلى آله وصحبه, بعد أن منَّ الله تعالى عليَّ بإكمال هذا البحث، ولا أدعي فيه الكمال أو الإحاطة, فإن لي وقفة في هذه الخاتمة, أستجمع فيها أهمَّ نتائجه في الأمور التالية:

1 - أن الإمام القرطبي المالكي عالم جليل, له اليد الطولى في مختلف العلوم الإسلامية, وكان حريص على السنة, قالٍ للبدعة وأهلها.

([1]) قصة مكاتبة حاطب بن بلتعة ﷺ للمشركين متواترة, وقد وردت في غالب دووين السنة, وأوردها علماء المغازي والسير وغيرهم, فأخرجها البخاري في صحيحه في عدة مواضع منها في كتاب الجهاد والسير, باب الجاسوس ح3007, كما أخرجها مسلم في صحيحه: ك/ فضائل الصحابة, باب من فضائل أهل بدر ﷺ, وقصة حاطب بن أبي بلتعة ح2494.

([2]) سورة الممتحنة: ١.

([3]) انظر: الجامع لأحكام القرآن (18/52, 54).

2 - أن الإمام القرطبي المالكي أولى جانب الصحابة ﷺ عناية كبيرة في مؤلفاته, يشيد بهم ويرفع من قدرهم, ويدافع عنهم.

3 - أن الإمام القرطبي المالكي له جهود واضحة في بيان مكانة الصحابة ﷺ العالية.

4 - قرر الإمام القرطبي المالكي وجوب عدالة الصحابة ﷺ من خلال النصوص الشرعية, وعباراته الدالة على ذلك.

5 - ظهور حب الإمام القرطبي المالكي العظيم للصحابة ﷺ من خلال دفاعه عنهم وثنائه عليهم ﷺ.

6 - وقد سار الإمام القرطبي المالكي على منهج أهل السنة في صحابة رسول الله ﷺ, فلم يغل فيهم ولم يجف عنهم, وله في ذلك عبارات رائقة, وحجج دامغة.

7 - أما بخصوص التوصيات, فإني أوصي بتتبع منهج الإمام القرطبي المالكي في كلامه عن الصحابة ﷺ والدفاع عنهم والاستفادة من تقعيداته وتأصيلاته في ذلك.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

- أحكام القرآن, أبو بكر بن العربي المعافري, تحقيق: محمد عبد القادر, مكتبة دار الباز, الطبعة الأولى, 1416ه.

- أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد بن محمد المقّري التلمساني, نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات المتحدة، ط 1398هـ.

- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت630هـ)، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود, الناشر: دار الكتب العلمية, ط1 1415ه.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت463هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى سنة 1412هـ.

- الإصابة في تمييز الصحابة لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق عادل أحمد وعلي محمد عوض، نشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنة 1415هـ.

- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبّي (ت599هـ)، نشر دار الكتاب العربي، باعتناء إدارة إحياء التراث، طبع سنة 1967م.

- تدريب الراوي شرح تقريب النواوي لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مؤسسة فؤاد - مصر.

- تذكرة الحفاظ للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي (748هـ)، طبعة أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة مصر، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، طبع سنة 1374هـ.

- تقريب التهذيب, لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط/1 1406ه.

- الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن علي بن محمد بن محمد بن محمد فرحون، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، نشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنة 1417هـ.

- ذبّ الإمام الشوكاني عن أصحاب النبي العدناني للإمام محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أبي الحسن علي بن أحمد الرّازحيّ، ط الأولى: 1427هـ مكتبة الرضوان - مصر.

- جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من أعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي، طبع دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط سنة 1973.

- صحيح مسلم للإمام الحافظ أبي الحسين المحدث أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، ط الثالثة: 1407هـ، دار ابن كثير - بيروت.

- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس, لمحمد بن جعفر الكتاني, دار الثقافة, الطبعة الأولى 1425ه.

- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/9 1413ه.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي الدمشقي (ت1089)، دار المسير، بيروت لبنان، الطبعة الثانية سنة 1399هـ.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، طبع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- شرح النووي على صحيح مسلم, المسمى: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج, المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي , الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (ت360هـ)، تحقيق عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، نشر دار الوطن الرياض، الطبعة الثانية سنة 1420هـ.

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. خلف بن عبد الملك بن بشكوال (المتوفى: 578 هـ) عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار. الناشر: مكتبة الخانجي. الطبعة: الثانية، 1374 ه.

- فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السّخاوي، ط الأولى: 1403هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- الكفاية في علم الرواية لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب (ت463هـ)، تحقيق أبو عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، نشر المكتبة العلمية المدينة المنورة.

- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الجوهّري، دار صادر بيروت.

- معجم البلدان لشهاب الدين، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي ، نشر دار صادر بيروت لبنان ، سنة 1397هـ.

- المستصفى من علم الأصول لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي

(ت505هـ)، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، نشر شركة المدينة للطباعة والنشر.

- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن محمد بن فارس ابن زكريا، اعتناء: الدكتور محمد عوض، وفاطمة أصلان، ط الأولى: 1422هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب لأحمد بن المقرّي التلمساني (ت1041هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، نشر دار صادر بيروت، الطبعة الثانية سنة 1997م.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، المعروف بابن الأثير، اعتناء: رائد صبري، بيت الأفكار الدولية.

- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط الأولى: 1420هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.